دلالة السياق وأثرها في فهم نص الحديث الشريف الصحيح

د.إقبال سر الختم أحمد عبدالباقي

أستاذ مساعد بكلية اللغات والترجمة بجامعة السودان

محمد علي احمد عمر

أستاذ مساعد بكلية اللغات والترجمة بجامعة السودان

بابكر النور زين العابدين

أستاذ مشارك بكلية اللغات والترجمة بجامعة السودان

1437هـ ـــــ 2015م

يُعد بحث العلاقات السياقية من المرتكزات المهمة في الكشف عن طرق البناء النصي. انشغل به عدد كبير من الباحثين في علم اللغة النصي أو لسانيات النص، في بحث أدوات بناء النص، واتّساقه وانسجامه، منهم: فان ديك، وروبرت دي بوجراند، ودرسلر، وبتوفي، إذ حاولوا جميعًا الكشف عن العلاقات النصية؛ لأنها هي التي تدعّم البنية النصية، التي تقوم على التماسك والانسجام؛ نظراً لأهميتها في تحقيق ما اصطلحوا على تسميته "بالكفاءة النصية"، جال في خاطرى سؤال هل الحديث الشريف مؤهل لهذه الكفاءة النصية ؟ ولكي تتم الإجابة بحثت في السياق من خلال الاحاديث الصحيحة، وما يقوم به أي باحث من الباحثين في هذا المجال اللساني، هو "توضيح سياق الجمل الدلالي، الذي ينبّئ عن خصائصها التركيبية والمعنوية" ، أي: الاعتماد على العلاقات الدلالية التي تقوم بين الألفاظ على مستوى الجملة، وبين الجمل على مستوى النص ، فيكون السياق مسؤولاً عن كيفية الترابط والتعليق بين المركبات النحوية الدلالية لسلسلة التتابعات الجملية المولّدة أصلاً من مقصدية النسج النصي المحكم؛ هذا على اعتبار نحو الجملة هو اللبنة الأساسية للنحو النصي، وقاعدته الصلبة التي ينطلق منها.

كان لعلماء الحديث اهتمامٌ بالغ بأحاديث رسول الله ﷺ ، حفظاً وضبطاً لمتونها، وفحصاً وتمييزاً لنقلتها، وكشفاً وبياناً لفقهها، وحلاً لغوامض ألفاظها.وقد جعلوا للتعامل مع ألفاظها قواعد تضبط مسالك الفهم وتضيء مسارب الاستنباط، وتعصم من مزالق الزلل والضلال، فمن أنواع علوم الحديث التي تمثل معالم كبرى في طريق الفهم السديد: علم مختلف الحديث، علم ناسخ الحديث ومنسوخه، علم أسباب ورود الحديث، علم غريب الحديث، فهذه أنواع رئيسة من علم مصطلح الحديث. وثمة قواعد مهمة لحسن الفهم للنص النبوي، جاء ذكرها في تطبيقات أهل العلم عند شرح أحاديث رسول الله ﷺ ، ومن تلك القواعد: اعتبار دلالة السياق في فهم النص النبوي، وهي قاعدة جليلة لها تأثيرها في جودة الفهم. وقال الإمام ابن القيم:"السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، والسياق من المصطلحات العصية على التحديد الدقيق[1]، ولذا اتجه بعض الباحثين إلى التعرف على خصائصه وفهم عناصره، وبيان

(1) مجلة الإحياء التي تصدرها الرابطة المحمدية للعلماء ، و هي مجلة تهتم بالدراسات الإسلامية و الشرعية (54).

أثرها في تحديد المعنى، ولم يقف عند التباس التعريف[1].

تم اختيار الأحاديث القدسية للدراسة والتحليل والتطبيق؛ لتضمنها مجموعة من النماذج الوظيفية للعلاقات السياقية بطريقة ملفتة للنظر ومتميزة، كما أن الطرح الأسلوبي داخل نص الحديث فيه تميّز وفرادة، يُضاف إلى ذلك تميز أدوات التواصل والإقناع أيضاً. وقد اعتمد البحث في الجانب التطبيقي على الأحاديث القدسية التي اعتنى بنصّها وشرحها جمال عبد الغني مدغمش، وفي حدود الإطلاع تمت دراسة الأحاديث القدسية دراسة لسانية، وضع على عاتقها الكشف عن العلاقات السياقية ونماذجها الوظيفية في نص الحديث، فتكون هذه الدراسة قائمة لإنجاح هذا الهدف المشار إليه.

هدفت هذه الدراسة إلى دراسة العلاقات السياقية ونماذجها الوظيفية في الأحاديث القدسية الشريفة، لما لهذه العلاقات من أهمية كبيرة في بناء النص، واتّساقه وانسجامه.

وتحقيقا لما سبق ذكره، تناول البحث بداية مفهوم العلاقات السياقية، ثم أهميتها نصيًا، وانتقل بعد ذلك لبحث النماذج الوظيفية للعلاقات السياقية في الأحاديث القدسية الشريفة، وهذه النماذج هي: العلاقات السببية، والعلاقات المعجمية، وعلاقات التماثل الأسلوبي، وعلاقات التناص، وعلاقات التتابع الدلالي.

خلص البحث إلى أن هذه النماذج لها أهمية كبرى في الجوانب البلاغية والتواصلية للأحاديث القدسية، كما أنها أسهمت بطريقة جادّة في بناء نص الحديث من جهة، وجعله يؤثر في نفسية المستقبل من جهة أخرى.

(1) البحث الدلالي عند الأصوليين(ص11).

المبحث الأول
مفهوم السياق

المطلب الأول: تعريف السياق لغة واصطلاحاً:

لغةً: قال الجوهري رحمه الله – [1]((ويقال ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة أي بعضهم إثر بعض ، ليست بينهم جارية .. والسياق نزع الروح)).[2]

وقال ابن فارس – رحمه الله - [3]: ((السين والواو والقاف أصل واحد ، وهو حدوث الشيء يقال ساق سوقا . والسيقة : ما استيق من الدواب. ويقال : سقت إلي إمراتي إي صداقها، واسقته والسُّوق مشتقة من هذا، لما يساق إليها كل شيء ، والجمع أسواق ، والساق للإنسان وغيره ، والجمع سوق ، وإنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها)).[4]

وقال الراغب الأصفهاني –رحمه الله - :((سوق السوق الإبل : جلبها وطردها ، يقال : سقته فانساق .. والسويق سمي لا نسواقه في الحلق من غير مضغ)).[5]

قال ابن منظور – رحمه الله - : ((سوق السوق معروف ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا سِياق .. وقد انساقت تساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت ، وكذلك تقاودت فهي متقاودة متساوقة.

في حديث أم معبد : فجاء زوجها يسوق عنزاً ما تساوق أي ما تتابع . الساوقة كأن بعضها يسوق بعضاً، والأصل في تساوق تتساوق كأنها لضعفا وفرطٌ هُزالها تتخاذل ويتخلف بعضها عن بعض.ساق إليها الصَّداق والمَهَر سِياقا ، والصداق عند العرب الابل التي تُساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما ... وهو في

---

(1) إسماعيل بن حماد الجوهري ، كان من أذكياء العالم ، وخطه يضرب به المثل في الجودة ، أخذا عن خاله إبراهيم بن إسحاق ، وعن أبي سعيد السيرافي ، وعن أبي علي الفارسي ، مات (393هـ) معجم الأدباء 446/1/2-448.

(2) الصحاح 1138/2-1139.

(3) هو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن المفضل ، وقيل : الحسين بن مفضل بن محمد ، وقيل : الحسين بن الفضل ، وقيل : المفضل بن محمد الأصفهاني الراغب ، له مفردات ألفاظ القرآن ، وأفانيين البلاغة ، والمحاضرات ، توفي في سنة 425هـ على خلاف في ذلك . بغية الدعاة 297/2، سير أعلام النبلاء 18/120.

(4) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة 117/3.

(5) الراغب الأصفهاني ،مفردات ألفاظ القرآن ص436.

السوق أي الترع كأنّ روحه تُساق لتخرج من بدنه ويقال له السياق أيضاً)).[1]

وقال الفيروز آبادي – رحمه الله -: ((والسياق ، ككتاب : المهر .. والمنساق : التابع ، وتساوقت الإبل :تتابعت وقاودت ، والغنم : تزاحمت في السير)). [2] ترى الباحثة أن هذه المادة تدور على معنى التتابع ، والاتصال ، وأن استعمال العرب لهذه المادة ومشتقاتها يدور على ذلك ، وتعليل تلك الاستعمالات.فإن سوق الإبل وتساوقها من التتابع والتتابع اتصال لا انقطاع فيه ، وساق الإنسان كذلك ، والمهر ، وسوق الروح ، والسوق سوق البيع والشراء ، كل ذلك يدور على معنى التتابع والاتصال.

السياق اصطلاحاً:

لقد كان تعريف السياق من أشكل المشكلات ؛ لأنني لم أجد تعريفاً له عند الأقدمين، إننا وجدناهم يصرحون به ويعملون به. يقول صاحب كتاب البحث الدلالي عند الأصوليين: ((قد يشيع المصطلح العلمي بين الدراسين إلى درجة الابتذال فيتوهم البعض أن هذا المصطلح واضح مفهوم ، فإذا ما حاولوا تحديد المعنى الذي ظنوا أنهم يفهمونه بدأ الأمر عسيراً غاية العسرة وغامضاً أشد الغموض ، ومن تلك المصطلحات اللغوية الشائعة الاستعمال العصية على التحديد الدقيق بشكل متفق عليه بين الدراسين مصطلح الكلمة ومصطلح الجملة ومصطلح السياق)).[3]

لقد تعامل العلماء مع هذا المصطلح من أربعة جوانب :

أ/مفهوم السياق من خلال استعمالهم له و اعتمادهم عليه، اعتقد أن هذا المفهوم يختلف من فئة لأخرى (أي مرتبط باختلاف تخصص الباحث من أصولي و لغوي).

ب/طرق العلماء ووسائلهم في تحديد السياق. يعني الأصوليين وذلك في بحثهم في القرآن من خلال سبب نزول الآية.

ج/ هل يعدل العلماء عن السياق ، فيرجحون بخلافه؟ تلك استخدام ألفاظ تعتمد أساساً توجه الباحث (لغوي ، أو اصولي).

د/صريح قولهم في مفهوم السياق. وهذا يتضح من خلال الدراسة وربطها بالنتائج.[4]

في حدود اطلاعي لكتب التراث اللغوية أجد أحيانا إشارة بمعنى السياق مثلاً،الجملة من خلال الموقف ، الحال ، الحدث. فمثلاً من النصوص التي ورد فيها

(1) ابن منظور، لسان العرب 10/166-167.
(2) الفيروز آبادي : القاموس المحيط 3/335-336.
(3) د. محمد يوسف حبلص ، البحث الدلالي عن الأصوليين ، مكتبة عالم الكتب ط1 ص28.
(4) السابق نفسه ص29.

لفظ السياق عند علماء التفسير والأصول.

قال السعدي [1] في مقدمة تفسيره: ((وقد كثرت تفاسير الأئمة – رحمهم الله – لكتاب الله ، فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود ، ومن مقصر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد ، وكان الذي ينبغي في ذلك ، أن يجعل المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه ، فينظر في سياق الكلام وما سيق لأجله)) [2].

قد تبين لي من خلال الدراسة أن اصطلاح لفظة السياق تأتي من خلال تتابع الجملة ، وخلاصة إفادة الكلام للموضوع ما. أي ما يُخرج به من مضمون الكلام. وهذا من الناحية اللغوية و الأصولية أي متابعة النص القرآني أو الحديث الشريف تكون مستندة على قواعد مثل سبب النزول في القرآن ، أما في الحديث الشريف المناسبة التي قيل فيها الحديث والله أعلم.

المبحث الثالث

دلالة السياق وأثرها في فهم نص الحديث النبوي

وبعيداً عن إشكالية المصطلح وتعقيدات التعريف، فإنني اعتمدت المعنى الشائع للسياق والذي يرتكز على أساسين: الأول: سياق المقال. والثاني: سياق المقام (الحال)، فهما يمثلان الإطار العام للسياق، ويندرج تحتهما أنواع السياق الأخرى.

ومما يجدر الانتباه إليه أنه قد يُعبر عن السياق بألفاظ أخرى، مثل: ظاهر الحديث، مقتضى الكلام، فحوى الكلام، المعنى العام، القرينة، ونحو هذه المصطلحات التي يكون الاعتماد فيها على معنى النص [3].

---

(1) هو عبد الرحمن بن ناضر بن عبد الله السعدي ، ولد سنة 1307هـ ، نشأ يتيماً ، وحفظ القرآن عن ظهر قلب وعمره أحدى عشرة سنة ، أخذ عن عدد من المشايخ ، ولازم الشيخ صالح بن عثمان القاضي ملازمة تامة ،كان متواضعاً دمث الخلق ، اشتغل كثيراً بكتب أبن تيمية وأبن القيم، وقد صار إليه التدريس ببلدة عنيزة ، مات 1376 هـ، علماء نجد خلال ثمانية قرون 3/218-253، ومقدمة محقق تفسيره تيسير الكريم الرحمن.

(2) تيسير الرحمن ص 9-10.

(3) وهنا لا بد من الإشارة إلى أهمية ضبط هذه المصطلحات المتداولة التي يقع الخلاف في دلالتها، وهل هي مطردة في استعمالها؟ لأنك تقف في كتب الأصول التي تُعنى بضبط دلالات الألفاظ أنواعاً من الاختلاف في دلالة تلك الألفاظ.

وفي السياق القرآني يُعبر عن السياق بـ"نظم الآية، نسق الآية، روح الآية، ظاهر الآية، ملاءمة الكلام، مقتضى الكلام، فحوى الكلام، الإطار العام، الجو العام، المعنى العام، القرينة، المقام، ونحوها".

أما مفهوم النص من المفاهيم التي أثيرت حولها العديد من القضايا ، فمن معاني كلمة (نص) لغةً ((نص الحديث ينصه نصاً، كذا نص إليه إذا رفعه، ونص ناقته إذا استخرج أقصى ما عندها من السير ، ونص العروس أقعدها على المنصة لترى ، ونص الشيء أظهره ، والنص التوقيف والنص التعيين على الشيء ما ومنه: أخذ بنص القرآن والحديث وهو اللفظ الدال على معنى لا يحتمل غيره))[1].

أما مفهوم النص اصطلاحاً فيورد الجرجاني في التعريفات تعرفيين للنص أولها : أن النص ما زاد وضوحاً على الظاهر لمعنى في المتكلم وهو يسوق الكلام لأجل ذلك المعنى فإذا قيل : أحسنوا إلى فلان الذي يفرح بفرحي ويغنم بغنمي كان نصاً في بيان محبته ، والثاني أن النص ما لا يحتمل إلا معنى واحداً أو ما لا يحتمل التأويل.

ومن هنا فإنه يمكن القول : إن كلمة (نص) مصدر يدل على الإظهار،والنصوص المظهر، وكل ما نص فقد أظهر وللكلمة دلالات أخر تدور على الانتصاب والارتفاع والاستخراج وهذه الدلالات يمكن ردها إلى معنى الظهور، ولعل هذا المعنى يتفق مع معنى النص الأدبي عامةً، ونص الحديث الشريف خاصة ، وفقاً لهذا التصور فالحديث الشريف ظاهرة لغوية لها وجود متميز وهو من جهة الدلالة اللغوية إفصاح وإظهار وإبانة.

قبل الشروع بذكر بعض التوجهات في تحديد مفهوم السياق، لا بدّ من تقرير حقيقة مهمة ذكرها دكتور عاشور وأنا اتفق معه : أنّ بحث السياق في علم اللسانيات والنحو يُعدّ من أعسر القضايا[2].

دلالة السياق:

ودلالة السياق قرينة يُستعان بها على الفهم، وهذه القرينة تكون تارة ظاهرة تُدرك من غير فكر وروية، وتارة تكون خفية لا تدرك إلا بمزيد نظر وتأمل، وآلتها إشراق العبارة وجمالها في الإفصاح عن المراد.

وهذه الدلالة وليدة النظر، وحسن الذائقة، ، فلا يطلب عليها دليل، قال الإمام ابن

---

(1) تاج العروس – مادة نص.

(2) عاشور، المنصف: بنية الجملة العربية بين التحليل والنظرية، ص49 ، تونس: جامعة تونس،1991.

دقيق العيد"ودلالة السياق لا يقام عليها دليل، وكذلك لو فهم المقصود من الكلام وطولب بالدليل عليه لعسر؛ فالناظر يرجع إلى ذوقه، والمناظر يرجع إلى دينه وإنصافه"[1].

أنواع السياق: للسياق نوعان رئيسان:

الأول: سياق المقال، هو السياق اللغوي الداخلي الذي ينتج عن ترابط الأصوات فيما بينها لتوليد الكلمات، والكلمات فيما بينها لتشكيل الجمل، والجمل فيما بينها لتشكيل النص.

فالقرائن المعتبرة لمعرفة دلالة سياق المقال، راجعة إلى النظم، والتركيب النحوية، مع اعتبار قواعد دلالات الألفاظ، فالباحث في دلالة سياق المقال، يحتاج إلى التمكن من تلك الأدوات، ومن هنا تفاوت الباحثون في هذا المجال بسبب تفاوتهم في امتلاك تلك الأدوات، وتمكنهم من تطبيقيها أثناء النظر في النصوص النبوية [2].

الثاني: سياق المقام : وهو يمثل البيئة التفاعلية بين المتحدث والمخاطب، وما بينهما من عرفٍ سائد يحدد مدلولات الكلام، وذلك أن تداول الخطاب يجري في سياق ثقافي واجتماعي بين المتحدث والمخاطب، وليس لفظاً مجرداً عن محيطه الذي يجري فيه.

فمعرفة قصد المتحدث وحال المخاطب من وسائل فهم سياق المقام، فقد يجتمع نصان متفقان في ظاهرهما في المعنى، ولكنهما مختلفان في الدلالة تبعاً لقصد المتحدث، أو حال المخاطب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً موضحاً أثر هذين الأمرين، وأن كل لفظ فهو:"مقيد مقرون بغيره، ومتكلم قد عرفت عادته، ومستمع قد عرف عادة المتكلم بذلك اللفظ، فهذه القيود لا بد منه في كل كلام يفهم معناه، فلا يكون اللفظ مطلقا" [3].

أولاً: سياق المقال:

ولابد من التأكيد على إشكالية منهجية تواجه الباحث عند النظر في دلالة سياق المقال، وهي اختلاف سياق الألفاظ، مما يؤثر على تطبيق قواعد الاستدلال.

---

(1) ابن دقيق العيد ،إحكام عمدة الأحكام(187/2).

(2) السابق نفسه والصفحة.

(3) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728هـ)، مجموع الفتاوى المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، **الناشر:** مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية،1416هـ/1995م (415/20).

ولدفع هذه الإشكالية فإنه ينبغي أن يكون النظر في سياق متن الحديث تالياً لجمع روايات الحديث، ومعرفة الوجه الراجح منها عند تعارضها، والحاجة إلى جمع روايات الحديث تشمل النظر في السياق المقالي الخاص لحديث واحد، والسياق المقالي العام لأحاديث متفقة في المعنى. ودلالة السياق تستدعي النظر في ألفاظ الحديث من أولها إلى آخرها، قال الإمام الشاطبي:"فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، فإن فرَّق النظر في أجزائه، فلا يتوصل إلى مراده" [1]

وقد ظهر أثر تطبيق دلالة السياق في كتب شروح الحديث في جوانب مختلفة، فكان لها أثر في تطبيق القواعد النحوية على المتن النبوي، فأفادت ضبط النص النبوي، وكشفت عن معاني حروف العطف، ودفعت بعض الإشكالات اللغوية، وأبانت إلى من يعود الضمير، وعن التطابق بين الشرط والجزاء.وظهرت الأحاديث الصحيحة من الموضوعة أي عنيت بتصنيف الأحاديث من صحيحها وحسنها وموضوعها. وإليك هذا المثال التطبيقي: حديث:((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله...))[(2)]

قال الحافظ ابن حجر:"فإن قيل: الأصل تغاير الشرط والجزاء، فلا يقال مثلا: من أطاع أطاع، وإنما يقال مثلا: من أطاع نجا، وقد وقعا في هذا الحديث متحدين، فالجواب أن التغاير يقع تارة باللفظ وهو الأكثر، وتارة بالمعنى ويفهم ذلك من السياق".

وفي مجال الفقه والاستنباط: فإنَّ السياق المقالي أدى إلى جودة الاستنباط، وتحديد صفة الفعل الذي تعلَّق به الحكم، وفي مجال تطبيق القواعد الأصولية فإنَّ السياق يكشف عن الدلالة هل هي عامة أو خاصة، وهل هي مطلقة أو مقيدة.

ومن الأمثلة التطبيقية على ذلك: حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:((إنَّ أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطانُ فلبَّس عليه، حتى لا يدري كم صلى، فإذا وجد ذلك أحدكم، فليسجد سجدتين، وهو جالسٌ))[(3)]. قال ابن بطال:"ولم يفرق بين

(1) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الغرناطي أبو إسحاق، الموافقات، مشهور بن حسن آل سلمان ، الناشر:دار ابن عفان (413/3).

(2) الراوي: عمر بن الخطاب المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم - الرقم: 1907

(3) أبو هريرة المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم - الرقم: 389.

أن تكون صلاته فريضة أو نافلة، والأفعال نكرات، والنكرات في سياق الشرط تعم، كما تعم في سياق النفي، والله سبحانه وتعالى أعلم" [1] .

وفي مجال ضبط النص ودفع ما قد يعتريه من سقط أو غموض، فإنَّ دلالة السياق كشفت عن بعض أنواع السقط في المتن، وأسهمت في تعيين مبهمات المتن، وتحديد صاحب القول عند الاشتباه، واستبعاد الغريب من الأقوال، ومن الأمثلة التطبيقية على ذلك: حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :((أقيموا الركوع والسجود، فو الله إني لأراكم من بعدي، وربما قال من بعد ظهري إذا ركعتم وسجدتم)) [2].

قال الإمام النووي:" وقوله ﷺ:(إني لأراكم من بعدي) أي من ورائي كما في الروايات الباقية قال القاضي عياض، وحمله بعضهم على بعد الوفاة، وهو بعيد عن سياق الحديث" [3].

ثانياً سياق المقام : ولما كان هذا السياق يمثل البيئة التفاعلية بين المتحدث والمخاطب، فإنَّ من أعظم الوسائل المعينة على إدراكه: هو معرفة سبب ورود الحديث، الذي هو ثمرة من ثمار جمع روايات الحديث.

وقد تبيَّن من تطبيقات الأئمة أن دلالة سياق المقام واسعة الدلالة، وقد ظهر أثرها في جوانب مختلفة، فمعرفة قصد المتحدث أدت إلى تأويل بعض النصوص على خلاف ظاهرها، فأخرجت النص من مساق الذم إلى مساق المدح، وأثمرت دقة في الاستنباط، ومعرفةً للخاص من العام، واستبعاداً للغريب من الأقوال.

ومن الأمثلة التطبيقية: حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال:((صلى النبي الله ﷺ الظهر ركعتين ثم سلَّم ...وكان في القوم رجلٌ يدعوه النبي الله ﷺ ذا اليدين، فقال النبي الله ﷺ: أصدق ذو اليدين)) [4] ، وقد بوب البخاري على هذا الحديث بقوله:"باب

(1)شرح النووي(150/4).
(2) الراوي: أنس بن مالك المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم - الرقم: 425 .
(3) شرح النووي(150/4).
(4) الراوي: أبو هريرة المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم: 573.

ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم : الطويل والقصير". قال ابن المنير:"أشار البخاري إلى أن ذكر مثل هذا إن كان للبيان والتمييز، كما ورد في الحديث، فهو الجائز، وإن كان في غير هذا السياق كالتنقيص والتغييب فهذا الذي لا يجوز، وإشارة عائشة في بعض الحديث إلى المرأة التي دخلت عليها، ثم خرجت فأشارت عائشة بيدها أنها قصيرة، فقال النبي الله ﷺ: اغتبتها؛ لأن عائشة لم تفعل هذا بياناً، وإنما قصدت إلى الإخبار عن صفتها خاصّة ففهم التغييب، فنهيت" [1].والقرينة الحالية التي اعتبرت في فهم النصين عائدة إلى قصد المتحدث، التي تُدرك من شواهد الحال، فلم يكن ﷺ حال سؤاله لأصحابه قاصداً التنقص منه، وأما إشارة عائشة، فكانت شواهد الحال تدل على أنها تريد التنقص منها.

وأما حال المخاطب فهي مؤثرة في سياق المقام، والاهتداء إلى معرفة فقه الحديث، ومن الأمثلة على ذلك: حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:((كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا)) [2] ، قال البدر العيني:"فإن قلت : أيجوز أن يكون المراد من السآمة سآمة رسول الله ﷺ ، من القول؟ قلت: لا يجوز، ويدل عليه السياق وقرينة الحال" [3].

ولسياق الحال أيضاً أثره في تبيين الظروف المكانية والزمانية، وضبط النص، وله أثره في حسن فهمه، وذلك بتحديد نوع الأمر أو النهي، وبيان هيئة الفعل، وسلامة

(1) الراوي: الله بن مسعود المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم: 2821.
(2) صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم: 2821
(3) المؤلف: محمود بن أحمد العيني بدر الدين أبو محمد ،عمدة القاري شرح صحيح البخاري (ط. المنيرية)(45/2).

الترجيح، ودفع الإشكالات الواردة على الحديث. ومن الأمثلة التطبيقية على أحد هذه الأنواع: حديث عائشة -رضي الله عنها- أنَّ النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: من هذه؟ قالت: فلانةُ تذكرُ من صلاتها. قال: مه، عليكم بما تطيقون، فو الله لا يمل الله، حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه)) [1]. وقد اختلف في المراد بقوله ﷺ :"مه". هل نهي لعائشة عن مدح المرأة لأنها كانت حاضرة، أم أنَّ النهي لأن العمل لا يُمدح بمثله، قال ابن رجب:" ويحتمل - وهو الأظهر وعليه يدل سياق الحديث - أن النهي إنما هو لمدحها بعمل ليس بممدوح في الشرع"[2].

المبحث الرابع
الدراسة التطبيقية

النماذج الوظيفية للعلاقات السياقية في البنية النصية للأحاديث

وجود مجموعة من النماذج الوظيفية النصيّة للعلاقات السياقية داخل بنية الحديث ، يثبت النظر التحليلي النصي، وهذه النماذج جميعها تنظّم بناء نص الحديث، وتعطيه طابع الاستمرارية والتواصل التأثيري، وأبرز هذه العلاقات هي: العلاقات السببيّة (causative Relations) والعلاقات المعجمية (The lexical Relations)

(1) أخرجه البخاري(حديث43).
(2) فتح الباري لابن رجب(150/1).

وعلاقات التماثل الأسلوبي (The stylistics similarity Relations) وعلاقات التتابع الدلالي الخطي (semantics chaining Relations The).

وفيما يلي بحث لهذه النماذج بما يفيد.

أ- العلاقات السببية

يثبت التحليل اللغوي النصي للعلاقات القائمة بين الجمل أو التراكيب في بنية الحديث القدسي الشريف، أنّ العلاقات السببية تمثّل محور هذه العلاقات وقلبها النابض بالحركة والحيوية التي تعطي النص البعد الاتّساقي التماسكي، وهذا يوفر الأبعاد النحوية الحقيقية التي تعطي النص البعد التواصلي، مما يضمن سرعة التلقي والتأثير.

وبداية يمكن طرح التساؤل التالي: ما هي العلاقات السببيّة؟ وما هي المظاهر التي اتّفق علماء لغة النص على إثباتها؟ ثم ما هي نماذجها الوظيفية في الحديث ؟

تُعدّ العلاقات السببية من العلاقات الدلالية المهمة التي تتضمن القيم الحقيقية لبناء الخطاب ، بل إنّ خطّة قاعدة الوصل السببي داخل النصوص تقوم على إدراك العلاقة السببيّة التي تقوم بين الجمل (التراكيب).

تم تحديد أدوات الربط السببي وحصرها بمجموعة من الأدوات والعناصر، استنتجت عن طريق الاطّلاع والتحليل لما كتب في هذا الموضوع في كتب علم لغة النص، وتشكّل هذه الأدوات مظهرين هما: الأدوات السببيّة الملفوظة، والأدوات السببيّة المقدّرة، وتتمثل الأولى باستخدام الأدوات الدالّة على السبب والتعليل جميعها، مثل: الفاء الدالة على السبب، والتلفّظ بـ "لأن"، و"حيث" [1]، أما المقدرة فتتمثل برصد العلاقات السببيّة المنطقية الناتجة عن التعالق الحاصل بين الوحدات النحوية على مستوى أبعد من الجملة الواحدة، فإذا كانت العلاقات السببيّة اللفظية قائمة على استخدام أدوات التعليل الملفوظة، فإن العلاقات المقدّرة، تقوم على تحليل الدلالات الخاصة بالتراكيب، وملاحظة الالتحام التام القائم بين التراكيب والسياقات، وهذا يتطلّب وعياً من قبل المستقبل، وهذا ما أسماه جان كوهن بـ "الربط بالقران" [2]، أن لدور المستقبل أهمية كبيرة في عملية اكتشاف هذا النمط من العلاقات ، أن دور المستقبل لا يقتصر على تحليل العلاقات داخل السياق اللغوي وحسب، بل يتعدّى ذلك

(1) هاينة من ، فو لفجانج ، وفيه فيجر ، ديتر: مدخل إلى علم اللغة النصي ، ترجمة، فالح بن شبيب العجمي ، ص46.

(2) كوهن ، جان : بنية اللغة الشعرية ،ترجمة محمد الولي ومحمد العمري ، ط 1 ، الدار البيضاء ، دار توبقال، 1986 ص350 .

فيدخل عناصر معرفية تواصلية أخرى في عملية التحليل والاستنتاج مثل: الشفرة اللغوية، وظروف الإنتاج، وطبيعته، وحالة المستقبل[1].

ويجد المتتبع لهذه العلاقات في الأحاديث القدسية، أثرها البارز في بناء النص وتنظيمه، ومن ذلك ما جاء في الحديث التالي:

"قَالَ أَبُو سَعِيْدٍ بنِ الأعْرَابي: حَدّثَنَا مُحَمَّدُ بْنِ عَبْدِ المْلَكِ بْنِ يزيدَ الرّوّاس – يُكنى أبا أسامة – قال أخبرنا حيوة بن شريح المصري أخبرنا بقية عن ضبارة بن عبد الله بن أبي سليك الألهاني قال: **أخبرني ابن نافع عن ابن شهاب الزهريّ قال سعيد بن المسيب: إن أبا قتادة بن ربعي أخبره قال رسول الله ﷺ: "قال الله عز وجل: إنّي قَدْ فَرَضْتُ عَلَى أُمَّتِكَ خَمْسَ صَلَوَاتٍ، وَعَهِدْتُ عِنْدِي عَهْداً أَنَّهُ مَنْ جَاءَ يحافظُ عليهنّ لوقتهنّ أدخلتُهُ الجنة، ومن لم يحافظْ عليهنّ فلا عهدَ له عندي" "**[1].

يُلحظ في هذا الامتداد النصي للحديث، وجود أثر بارز للعلاقات السببية في تنظيم النص، وقد تمثّلت بوجود الفاء الواقعة في جواب الشرط، باعتبارها عنصراً ملفوظاً، ثم سلسلة العلاقات المتتابعة والمتمثلة بالتتابع الدلالي التوضيحي؛ لأن سلسلة التراكيب المتتابعة، قد جاءت أساساً لتوضح فكرة "فرض الصلاة"، ويمكن توضيح ذلك عن طريق تحليل المضمون الدلالي لهذا الحديث كما يلي:

التبليغ بفرض الصلوات الخمس (تتابع وتفصيل سببي) التبليغ بفضل القيام بالصلوات، وهو الجنة (تتابع وتفصيل سببي) التبليغ بمصير من لم يحافظ عليهن (تتابع وتفصيل سببي)

فالمراحل جميعها هي مراحل تتابعية تفصيلية، والتراكيب جميعها توضح بعضها بعضاً، ووجود أسلوب الشرط يعزّز البنية السببية، يُضاف إلى ذلك خاتمة الحديث، والتي تتضمن التبليغ بمصير من لم يحافظ على الصلاة، وفي هذا ربط محكم للتراكيب جميعها، ولتوضيح أكثر لهذه المسألة، يمكن تلخيص ما تقدّم ذكره بما يلي:

انبثق عن فرض الصلاة التفصيلات الخاصة بمصير الإنسان

ومما يعزّز العلاقات السببية داخل البنية النصية للحديث مسألة التدرّج الإسنادي في عرض الأفكار، لما تتضمنه من تسلسل منظّم، وتظهر جلية في التدرّج؛

---

(1) د. مهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى ، ط1، أكاديمية الفكر الجماهير، 2011 – بنغازي ليبيا.

(1) مدغمش ، جمال عبد الغني : الاحاديث القدسية ، طبعة مصححة ومدققة ، ط 1 ، عمان : دار الاسراء، 2003، ص16

لأن بنية التدرج هي بنية منطقية [1]؛ فتحقُّق إحدى صور المعلومات داخل التتابع الجملي النصي يتوقّف على حدوث الأخرى[2]، إذ تترابط المحتويات الدلالية للتراكيب الإسنادية بطريقة مقنعة ومؤثرة، ويلمح هذا في كل حديث من الأحاديث القدسية، ومن ذلك الحديث التالي:

" حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد، قالا: حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "يقول الله سبحانه: أَنَا عِنْدَ ظَنّ عَبْدِي بي. وأنا معه حين يَذْكُرُنِي. فَإِنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نفسي. وإِنْ ذَكَرَنِي في مَلأ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وإِنْ اقْتَرَبَ إليّ شِبْرًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً. وإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً" [3].

إذ تترابط التراكيب على تعدّد دلالاتها الجزئية مع اتفاقها في الفكرة الكلية التي هي: (حسنُ الظن بالله تعالى)؛ وذلك بفعل العلاقات السببية التي تربط الدوائر الإسنادية المشكلة لهذا الحديث، فالله عز وجل يكون عند ظن عبده به، فتنبثق من هذه الفكرة الدلالات الجزئية التي تحملها الأفكار المتتابعة، وهذه الأفكار هي: إن الله مع العبد حين يذكره. إذا ذكر العبد الله عز وجل في نفسه ذكره الله في نفسه. إذا ذكر العبد الله عز وجل في ملأ ذكره الله في ملأ خير منهم، إذا اقترب العبد من الله شبراً اقترب الله إليه ذراعًا، إذا أتى العبد إلى الله ماشياً، أتاه الله هرولة.

فكل فكرة تُفضي إلى الأخرى وهكذا حتى نهاية الحديث، وهذه العلاقات تعزّز الوحدة الموضوعية لبنية الحديث الشريف. ومن ذلك ما جاء في خلق ابن آدم في بطن أمه، ونصّ الحديث المتضمّن لهذه الفكرة هو: **"حدّثنا آدم حدّثنا شعبة حدّثنا الأعمش سمعت زيد بن وهب سمعت عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه حدّثنا رسول الله ﷺ- وهو الصّادق المصدوق- "أنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً وأَرْبَعِيْنَ لَيْلَةً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَهُ، ثم يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ، ثم يُبْعَثُ إليه الملكُ فَيُؤَذَّنُ بأربعِ كلماتٍ فَيَكْتُبُ رزقَهُ وأجَله وعمَله وشقيّ أم سعيدٌ، ثم يَنْفُخُ فيه الروحَ فإنّ أَحَدَكُمْ ليعمل بعملِ أهلِ الجنةِ حتى لا يكونُ بينها وبينه إلا ذراعٌ، فيسبقُ عليهِ الكتابُ، فيعمل بعملِ أهلِ النارِ فيدخلُ النارَ، وإنَّ أحدَكم ليعمل بعملِ أهلِ النارِ حتى ما يكونُ**

(1) استيتية، سمير ، علم اللغة التعليمي ،دار الأمل للنشر والتوزيع ،الأردن – اربد ص347.

(2) دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة : د. تمام حسان ، ص347.

(3) مدغمش، جمال عبد الغني ، الأحاديث القدسية ،ص 33-34.

بينَها وبينَهُ إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتابُ، فيعمل عملَ أهلِ الجنةِ فيدخُلها" [1].

إذن، فالفكرة المحورية هي: خلق ابن آدم في بطن أمه، وتقوم العلاقات السببية بعملية الربط الإسنادي، فيحدث الربط بين التراكيب التي تحمل في دلالاتها المراحل التي يمر بها الإنسان وهو في بطن أمه، ولتعزيز هذا الترابط، أُتبعت هذه المراحل مباشرة بما يُرغّب الإنسان في فعل أفعال أهل الجنة، وترك أعمال أهل النار، وقد يكون السبب الأساسي الذي دفع إلى ذكر مراحل خلق الإنسان هو التذكير بالمراحل التي يمر بها وهو في بطن أمه، فيأخذ العظة والعبرة، فيتذكر قدرة الله دائمًا، وهذا يجعله يلتزم بعمل أهل الجنة، وترك عمل أهل النار، وهنا تتنامى مسألة التعالق السببي، لتصل إلى ذروتها، فتكون العلاقة التي تربط جزأي الحديث هي علاقة السبب بالنتيجة، فيكون سبب ذكر مراحل خلق الإنسان – كما سبق ذكره- هو تذكيره بقدرة الله عز وجل في الخلق، فتكون بذلك العلاقات السببية قد نظّمت جميع أجزاء الحديث، وربطت بعضها بعضاً أيضاً.

وهذا يثبت أن العلاقات السببية تمثل الجانبين: الظاهر والخفي للروابط النصية، أي أن الربط قد يكون بالأداة وقد لا يكون بها، فقد تكون رحلة الربط رحلة ذهنية تصوّرية، لا تعتمد على الربط المباشر، وإنما تعتمد على عدم المباشرة في الربط، وكل هذا يخضع لمحور التتابع الذي هو أصلا "العلاقات التي تربط الجمل بعضها ببعض" [2].

ومن مظاهر العلاقات السببية ظاهرة التفصيل بعد الإجمال، ولا يخفى ما لهذه الظاهرة من أثر بارز في وضع الإطار النصي الحقيقي للعلاقات السببية التي تخدم الموقف بعامة- إذ يتم ذكر نقطة محدّدة ثم تُتبع بتفصيلات خاصة بها، فتكون هذه النقطة الفكرية إجمالاً- يُتبع بالتفصيلات الخاصة به، ونماذجه كثيرة في الحديث القدسي، ومن ذلك ما يرويه رسول الله ﷺ عن الله عز وجل: "يَا ابنَ آدم اثنتانِ لم تكنْ لكَ واحدةً منهما: جعلتُ لكَ نصيباً منْ مالِكَ حين أخذتُ بكظمِكَ، لأُطهّرَكَ به وأزكّيكَ. وصلاةُ عبادي عليكَ بعدَ انقضاءِ أجلِكَ" [3]

ففي قوله: (يا ابن آدم اثنتان لم تكن لك واحدة منهما) إجمال، وهو سبب

(1) مدغمش، جمال عبد الغني ، الأحاديث القدسية ،ص 63.

(2) الزناد، الأزهر : نسيج النص (بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً) ، بيروت – الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، 1993

(3) مدغمش، جمال عبد الغني ، الأحاديث القدسية ،ص 101 .

للتفصيلات اللاحقة، فالاثنتان اللتان لم تكونا للإنسان هما: المال الذي يأخذه الله ليزكي به الإنسان، والصلاة على الإنسان بعد وفاته، وهاتان الاثنتان هما التفصيل (النتيجة)، المنبثق من الإجمال السابق، وهذا يمثل أعلى درجة من درجات التماسك والربط.

ب- العلاقات المعجمية

العلاقات المعجمية ، وتقوم هذه العلاقات الخاصة بالألفاظ بربط التراكيب النصية، وعموماً، فإن علماء لغة النص حصروا هذا النمط من العلاقات بإعادة الذكر (التكرار) والتضام. إعادة ذكر اللفظ أو التركيب نفسه بحسب دي بوجراند debeaugrande يتطلّب "وحدة الإحالة بحسب مبدأي الثبات والاقتصاد" [1] وله علاقة مباشرة بالتماسك المعجمي الذي يُعد الخطوة الأساسية في بناء الجملة والنص كاملاً [2] وهو كما يصرّح كل من: هاليداي وحسن يتمثل بما يلي:

1. إعادة العنصر المعجمي نفسه.
2. إعادة أو ورود مرادف له.
3. إعادة عنصر شبه مرادف.
4. إعادة عنصر مطلق.
5. إعادة اسم عام [3].

ولتوضيح هذه العلاقة نأخذ الحديث التالي:

"وحدّثني عن مالك عن سهيل ابن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "إذا أحبّ الله العبد، قال لجبريل: قد أحببت فلانا فأحبَّه، فيحبه جبريل. ثم ينادي في أهل السماء: إن الله قد أحبّ فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء. إن الله قد أحبّ فلانا فأحبوه. فيحبه أهل السماء. ثم يُوضع له القبول في الأرض". وإذا أبغض الله العبد قال مالك: لا أحسبه إلا أنه قال في البعض مثل ذلك"[4]

فالتركيز على الجذر "حب " وإعادة ذكره بصيغ مختلفة؛ يحدث نوعاً من العلاقات السياقية الهادفة: (أحب، أحببت، فأحبه، فيحبه، أحب، فأحبوه، فيحبه)، وهذا

(1) دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء ، ترجمة : د. تمام حسان ، ص303.
(2) استيتية، سمير ، منازل الرؤية منهج تكميلي في قراءة النص ، ص 25 .
(3) خطابي محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ،ط 1 ، بيروت والدار البيضاء: المركز الثقافي العربي 1991م ص20- 25.

(4) مدغمش، جمال عبد الغني ، الأحاديث القدسية ،ص 45-46.

النوع من العلاقات السياقية المعجمية يؤدي إلى استمرار السياق وعدم انقطاعه، فهو يعزّز الترابط النحوي المعجمي؛ لأنه يتضمن في ثناياه التتابعات الدلالية النحوية، فلا تبقى محصورة في إطار العلاقات الشكلية القابعة في اللفظ، وفي بعض مدلولاته كما هو متصوّر في بعض الدراسات[1].

وهذا التتابع لهذه الصيغ، يثبت أن هذه الصيغ هي التي تنظم عالم النص، فهي تثبت الفكرة الأساسية القائمة على أساس: محبة الله لعبده، فالله عز وجل إذا أحبّ عبداً، حبّبه إلى عباده، ولترسيخ هذه الفكرة وتأكيدها؛ فإنه تم تكرير هذه الصيغة لتحمل في ثناياها الأفكار جميعها.

كما أن التدقيق في هذه العلاقة، يثبت أنها تؤثر في منظومة العلاقات الكلية التي تحكم بنية الحديث الشريف النصية، فهي التي استدعت أسلوب العطف، كما أنها عملت على تعزيز ظاهرة التعليق الشرطي وتعميق أثرها في اتّساق النص. وهذا يثبت أيضاً الأبعاد التكاملية التآزرية للعلاقات النصية، وصولاً إلى نص هادف، يدفع إلى التواصل والتأثير، وما يؤكد ما تقدّم ذكره نصاً. وفكرةً الحديث التالي:

"وحدّثنا محمدٌ بن رافعٍ حدّثنا عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله ﷺ: "إنَّ أدنى مقعدِ أحدِكم منَ الجنةِ، أنْ يقولَ لهُ: تمنّ. فيتمنّى ويتمنّى. فيقول له: هل تمنّيت؟ فيقول: نعم؟ فيقول له: فإن لك ما تمنّيت ومثله معه" [2]

إن إعادة لفظ "التمنّي" بهذا التتابع يؤكد العلاقات السببية القائمة بين التراكيب المتتابعة، أو بين جزأي الحديث الشريف، فالجزء الأول: يبيّن مكانة الإنسان في أدنى مقعد في الجنة، والجزء الثاني: جاء ليبيّن هذه المكانة أو الوضع الذي يتمثّل بإعطاء الإنسان كل ما يتمنّى ومثله معه زيادة على ذلك، وقد جاء هذا التكرار ليعزّز فكرة أن كل ما يتمنّاه الإنسان سيحصل عليه.

ولعلّ هذا من أبلغ أنواع البلاغة في بنية الحديث الشريف، إذ يرتقي تكرير اللفظ والتركيب معاً؛ ليعزّز غاية أبعد وأعمق مما يتخيّله قارئ سطح التركيب، وهذا فيه بلاغة وإبلاغ (تأثير)، وحثّ على الالتزام بكل ما يوصل الإنسان إلى الحصول على كل ما يتمنّاه، فيحصل على الجنة، وكل ما يتمنّاه داخل الجنة، وهذا له علاقة مباشرة أيضاً بالمقصدية الأسلوبية داخل الحديث الشريف نفسه، أي: علاقة بالجانب الأسلوبي

---

(1) wissenschaft/ personal/ personal / lehman/ ling-meth/lexice. www.uni-erfur.de/sprach

(2) مدغمش، جمال عبد الغني ، الاحاديث القدسية ،ص 206.

والغرض هنا التمثيل لا الحصر.

جـ علاقات التماثل الأسلوبي

تُعدّ علاقات التماثل الأسلوبي من العلاقات السياقية اللافتة للنظر في البناء النصي للحديث القدسي الشريف، وبداية يمكن طرح السؤال التالي: ما المقصود بعلاقات التماثل أو التشابه الأسلوبي؟ للإجابة على هذا السؤال لا بد من التأكيد على أن المنحنى الأسلوبي، وكذلك المقصدية الأسلوبية، لهما أثرهما الواضح في تعزيز التواصل والاستمرار السياقي؛ لأن ذلك له تأثير في طرق فهم النص، والاستمرار معه، كما أنه يعطي شعوراً جيداً بطرق التفكير والبناء الذهني للنص [1] وربما هذا يتناقض مع الفروض القائلة: بأن البلاغة والأسلوبية معا تركّزان على البعد الفني وما يحدثه الشكل من أثر جمالي باعتباره عاملاً جوهرياً، دون الحاجة إلى تفصيل الفروق بين الأشكال التواصلية والفنية للاستعمال[2].

فالعلاقات الأسلوبية داخل السياق النصي، تتخطّى مسألة الوقوف على معنى الشكل اللغوي، والدلالة التي يتضمّنها؛ لأن هذا ليس هدف الأسلوبية أصلاً [3]وإنما تتخطّى ذلك لتبرز أثر هذه الأشكال اللغوية في وصل السياق (استمرار السياق)، وعدم انقطاعه، وتفعيل أثر هذه الأشكال في بناء النص، وذلك لأن عالم الأسلوبية يكون أمام نسيج نصي بحاجة إلى توضيح وتفسير[4].

ربما هذا الفهم هو الذي دفع بـ (فاينريش) إلى القول: إن المعنى لا يتحدّد عن طريق الجملة الواحدة، وإنما عن طريق التعاقب بين مجموعة من الجمل[5]، وإذا كان فهم المعنى يتحقّق عن طريق تتابع جملتين فأكثر فما أجدر بهذه الجمل أن تكون نماذج أسلوبية – في ذاتها – مؤثرة، وتسهم بطريقة فاعلة في عملية التواصل وفهم النص[6]، ويعدّ هذا الفهم من أهم ما قُدّم في هذا السياق، وهو يثبت أن الأشكال الأسلوبية

---

(1) stylistics course , retrieved in 21/12/2006, from website: "http: www.Lancs.ac.uk/fass /projects/ stylistics/introuduction/ whoisit from.htm

(2) بحيري سعيد، علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات، الشركة العالمية للنشر – مكتبة لبنان، 1997ص67.

(3) مولينيه جورج ، الأسلوبية ، ترجمة بسام بركة ، بيروت ،1999 ص163 .

(4) السابق نفسه ص154-155.

(5) بحيري سعيد ، علم لغة النص ص140.

(6) السابق نفسه والصفحة.

المتماثلة، والممثلة للظاهرة الأسلوبية هي التي تجعل الأسلوبية محاولة جادّة للاتصال المؤثّر من قبل القارئ في نفسية المتلقي [1].

يمكن تمييز مجموعة من علاقات التماثل الأسلوبي – كما تمّت الإشارة – في نص الحديث القدسي الشريف، وهي علاقات أسلوبية نحوية، تصل السياق، وتفعله نحو التواصل والتأثير، ومثال ذلك، وهو كثير جداً، ما يتضمنه الحديث التالي:

عن أبي هريرةَ، قال: قال رسول الله ﷺ: إنَّ اللهَ عزّ وجل يقولُ يوم القيامة: يا ابْنَ آدم مرضتُ فلمْ تَعُدْنِي. قال: يا ربّ كيفَ أعودُكَ؟ وأنتَ ربّ العالمين. قال: أما علمْتَ أنَّ عَبْدِيَ فُلاناً مرضَ فلم تَعُدْهُ. أما علمتَ أنكَ لو عُدْتَهُ لوجدتَنِي عنده؟ يا ابنَ آدم اسْتَطْعَمْتُكَ فلمْ تطعمْنِي. قال: يا ربّ وكيفَ أطعمُكَ؟ وأنت ربّ العالمين. قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمتَ أنكَ لو أطعمتَهُ لوجدتَ ذلكَ عندِي؟ يا ابْنَ آدم اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تسقِني. قال: يا ربّ كيف أسْقِيْكَ؟ وأَنْتَ ربّ العالمينَ. قال: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فلانٌ فلمْ تُسْقِهِ. أما أنكَ لو سقيتَه وجدتَ ذلكَ عندي" [2].

ترى الباحثة في المحور السياقي أو الامتداد السياقي لهذا النص، يُلحظ أن أسلوب النداء (يا ابن آدم)، (يا ربّ)، وكذلك أسلوب الاستفهام (أما علمت....؟)، لهما امتداد أسلوبي، يعزّز قيمة المضامين التي يتضمّنها الحديث، ويعمل على تقريرها وتأكيدها، بل إن هذا التماثل الأسلوبي من المرتكزات الأساسية التي بُني النصّ عليها، كما أنها تعزّز القيم الإبلاغية البنائية لهذا النص، فالله عز وجل ينادي: "يا ابن آدم"، فيردّ عليه ابن آدم، لجهله بالأمور التي هي باستطاعته قائلاً: كيف أفعل كذا وأنت ربّ العالمين، فيردّ عليه الله تعالى: "أما علمت كذا وكذا.." إنّ هذا الأسلوب في التفصيل والقول، ينحسب على مجموعة كبيرة جداً من الأحاديث القدسية.

من علاقات التماثل الأسلوبي في الحديث ، تكرار أسلوب بعينه، ويكون هذا مقصوداً، فهو يمثّل استراتيجية تفصيل دلالية، تأتي لتقرير مجموعة من الحقائق الدينية الثابتة التي تتمحور حول تأكيد فكرة كلية واحدة، وهي كثيرة جداً في الحديث، ومن ذلك الحديث الخاص بتحريم الظلم، ونصّه هو:

" عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

---

(1) "stylistics" linguistics, Retrieved in 15/3/2007, from website: http://en.wikipedia.org/wiki/stylistics (linguistics)

(2) مدغمش، جمال عبد الغني ، الاحاديث القدسية ،ص 152.

"يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي. وجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ محرَّماً فَلا تَظَالَمُوْا. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلاّ مَنْ هَدَيْتُه. فَاسْتَهْدُوْنِي أَهْدِكُمْ يا عبادي كُلكمْ جائعٌ إلا من أطعمتُهُ فَاسْتَطْعِمُوْنِي أطعمكم. يا عبادي كُلكم عارٍ إلا من كسوتُهُ. فَاسْتَكْسُوْنِي أَكْسُكُمْ. يا عبادي إنكم تخطئون بالليلِ والنهارِ، وأنا أغفرُ الذنوبَ جميعاً. فاستغفروني أغفرْ لكم. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني. ولن تبلغوا نفعِي فتنفعُوني، يا عبادي لو أن أولَكم وآخرَكم، وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلكَ في ملكِي شيئاً. يا عبادي لو أن أولَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ ما نقصَ ذلكَ منْ ملكِي شيئًا. يا عبادي لو أنّ أولَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني. فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألته ما نقصَ ذلك مما عندي إلا كما ينقصُ المخيطُ إذا أُدْخِلَ البحرَ. يا عبادي إنما هي أعمالُكم أُحصيها لكم. ثم أوفيكم إياها. فمن وجدَ خيرًا فليحمد الله. ومن وجدَ غيرَ ذلكَ فلا يلومَنّ إلا نفسه".

قال سعيد: كان أبو إدريس الخولاني، إذا حدّث بهذا الحديث، جثا على ركبتيه"[1]

فتكرير النداء متبوعاً بالتراكيب المترابطة بفعل العلاقات السببية أمر لافت للنظر، ويأتي هذا التكرار (يا عبادي)؛ لأن العباد هم محور هذا الحديث، فهم الذين يصطنعون الظلم، ويمشون فيه في الأرض. ويعمل هذا التكرار أيضاً على تعزيز مجموعة من التساؤلات التي تقع خلف الألفاظ والتراكيب، وهذه التساؤلات تفترض بالإنسان أن ينسى الظلم ويحذفه من حياته، وهذه التساؤلات هي:

1. بما أن الهداية من عند الله – عز وجل – فلِمَ يلجأ الإنسان إلى الظلم؟
2. بما أن الإطعام والكسوة من عند الله -عز وجل- فلِمَ يلجأ الإنسان إلى الظلم؟
3. بما أنّ المغفرة والمنفعة والضرر والقوة من عند الله- عز وجل- فلِمَ يلجأ الإنسان إلى الظلم؟
4. بما أن الرزق من عند الله – عز وجل – القادر على إحصاء كل ما يقدّمه الإنسان، فلِمَ يلجأ الإنسان إلى الظلم؟ نعم، إن هذا التكرار يخفي وراءه تساؤلات مختلفة، تلفت نظر الإنسان إلى ضرورة الالتزام، وأخذ العظة والعبرة، والانتباه إلى أن أمور الإنسان كلها لا تجري إلا بمقتضى قدرة نظامية إلهية، تنظّم حياة الإنسان،

(1) مدغمش، جمال عبد الغني ، الاحاديث القدسية ،ص 153.

ورحلته في هذا الكون، وبناء على هذا تكون علاقة الأسلوب والتميز الأسلوبي بالنص هي علاقة إبداع وبناء، إنها علاقة تداخل [1]

د- علاقات التتابع الدلالي الخطي

التتابع الدلالي هو صنف من العلاقات السياقية التي تخضع لمبدأي التتابع والتعاقب، ويميل البحث إلى تسميته بهذا الاسم – رغم أنّه يوحي بالعمومية – ليكون أكثر شمولاً وتحديداً لمجموعة من المظاهر الخاصة به، ويمكن حصرها بما يلي:

أ- الروابط الزمنية (التتابع الزمني).

ب- العطف.

ج- التتابع الدلالي الإسنادي

يشير محور التتابع إلى "العلاقات التي تربط الجمل بعضها ببعض وهي تستجيب في ذلك لحتمية الخطية Linearite في إنجاز الكلام" [2] وقد ركّز فان ديك وهاليداي ورقية حسن وكرومبي، على أهمية الروابط الزمنية بين الأحداث النصية في عملية البناء النصي، وهذه العلاقات هي علاقات توافقية توفرها الأفعال وبعض الألفاظ الدالّة على الزمن[3]ومثال ذلك الحديث التالي:

"حدّثني هارون بن سعيد الأَيْليّ. حَدّثنا ابْنُ وَهْبٍ. حدّثني مالك عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: "قال الله عز وجل: أعددْتُ لِعبادي الصالحينَ ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ. ذُخراً بَلْه ما أطلعكم الله عليه" [4].

يلحظ أنّ سلسلة الأفعال: (أعْدت، ورأت، وسمعت، وخطرَ، وأطلعكم)، تترابط فيما بينها زمنياً، وتعمل على تنظيم سلسلة الأحداث التي يتكوّن منها الخطاب القدسي، وذروة البلاغة القدسية أن يأتي الفعل معبّراً عن الرابط الزمني من جهة، ومعبّراً عن مناسبته للحدث من جهة أخرى. وهذه الأفعال جميعها مترابطة، وتابعة لمحور حتمية الإنجاز، والأحاديث التي تؤكد هذا كثيرة جداً.

أمّا العطف، فهو خير ما يربط التراكيب بطريقة ظاهرة، إذ يقوم على عطف

---

(1) هاينة من ، فو لفجانج ، وفيهفيجر ، ديتر: مدخل إلى علم اللغة النصي ، ترجمة، فالح بن شبيب العجمي ، ص46

(2) الزناد الأزهر ، نسيج النص،35.

(3) hilliday ' Hasan : cohesion in English , P.250 'Crombie, Winifred: process an relation , p10

(4) مدغمش، جمال عبد الغني ، الاحاديث القدسية ،ص 36 .

الجمل والتراكيب بعضها على بعض ضمن السياق الخطي [1]، فتكون العلاقة القائمة بين التركيبين هي علاقة التتابع الدلالي؛ لأن الجملة المعطوفة أو التركيب المعطوف يأخذ حكم التركيب المعطوف عليه ودلالته، ويحدث العطف بوساطة أدوات العطف المعروفة [2]، ويقوم المفهوم الوظيفي للعطف على النظر في المعاني المتعددة لاستعمالات حرف العطف، ويتطلّب وجود قرابة بين وحدات اللسان [3]، ويرى جان كوهن أن العطف يوجّه نظرنا إلى طبيعة تعاقب الجمل داخل النص [4]، "فالتوسّع بالعطف قد يشمل في تحليل الجملة العربية الدلالات المنتظمة، داخل وحدة كلامية قائمة برأسها حتى يلتقي الشكل التركيبي بالشكل المعنوي"[5]

وجدير بالملاحظة، أنّ العطف كثير الورود في بنية الحديث القدسي كما مَرّ، ولا توجد حاجة لإيراد نماذج على العطف لسهولة مجراه.

ويُعدّ التتابع الدلالي الإسنادي من أبرز العلاقات السياقية التي تكوّن عالم النص، وتتحكّم بأهدافه، فتعمل على سَلْسلتها بأسلوب مترابط متماسك، وتتراءى هذه العلاقات عبر البنية النصية عن طريق ربط جزأي التركيب بعضهما ببعض من جهة [6]، وربط سلسلة التراكيب النصية بعضها ببعض؛ كونها تدور حول فكرة محوريّة أو أو دلالة كلية واحدة وثابتة من جهة أخرى [7]؛ وذلك لأن اشتراك التراكيب الإسنادية في المحور الدلالي الثابت هو من أسمى علاقات الربط؛ إذ يعكس الإمكانات الذهنية التنظيمية داخل النص[8]، وما يؤكِّد ذلك الحديث التالي:

" حدّثنا مُحمد بنُ حاتم بن مَيْمُونٍ. حدّثنا بَهْزٌ. حدثنا وهيب. حدثنا سهيل عن أبيه، عَن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "إنّ لله تبارك وتعالى ملائكةً سيّارةً، فُضلاً

---

(1) Halliday & Hassan : P244

(2) Ibid, P244.

(3) بول فايز وكرستيان بايلون: مدخل إلى الالسنية ، ترجمة طلال وهبة ،بيروت المركز الثقافي العربي، 1992 ، ص13.

(4) كوهن جان ، بينية اللغة الشعرية ص157 .

(5) عاشور المنصف ، بنية الجملة العربية ص70 .

(6) Longacacre, Robert: The Grammar of Discoure,pp82.

(7) Ibid,pp82-83

(8) htt://crl.nmsu.edu/Research/projects/Mikro/htmls/oldstuff/htmls/glossary.html

يبتغونَ مجالِسَ الذكرِ. فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكرٌ قعدوا مَعَهُم. وحفّ بعضُهم بعضاً بأجنحتِهم. حتى يملؤوا ما بينهم وبين السَّماءِ الدنيا. فإذا تفرقوا عَرَجُوا وصَعِدُوا إلى السّماءِ. قال: فيسألُهم الله عز وجل، وهو أعلمُ بِهِمْ: مِن أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عنِد عبادٍ لك في الأرض، يُسبّحونك ويُكبرونك ويهللونك ويمجدونك ويسألونك. قال: وماذا يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك. قال: وهلْ رأوا جَنَّتي؟ قالوا: لا. أيْ ربّ قال: فكيف لَوْ رأوا جنَّتي؟ قالوا: ويستجيرون. قال: ومِمَّ يستجيرونني؟ قالوا: مِنْ نارِكَ يا ربّ، قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا. قال: فكيفَ لَوْ رأوا ناري؟. قالوا: ويستغفرونك. قال: فيقولُ: قد غفرتُ لهم. فأعطيتهم ما سألوا وأجرْتهم مما استجاروا. قال: فيقولون: رب فيهم فلانٌ. عبدٌ خطّاءٌ. إنما مَرّ فجلس معهم قال: فيقول: وله غَفَرتُ. هُم القوم لا يشقى بهم جليسُهُمْ" (1)

يدور هذا الحديث حول فكرة محورية أساسية وهي: "فضل مجالس الذكر"؛ ولتأكيد هذه الفكرة وتوضيحها تتتابع التراكيب الإسنادية؛ مشكّلة مجموعة من الدوائر الإسنادية المترابطة

ويلحظ أنّ هذا الحديث يضم دائرتين إسناديتين كبيرتين، كل واحدة منهما تتضمّن مجموعة من الدوائر التي تنقل الدلالات، وتفعلها، وتربطها ببعضها البعض؛ فهذا التدوير الإسنادي – إن صحّ التعبير – يعزّز قيمة التتابع الدلالي للتراكيب في فهم النص، ولفت أن ظار المستقبل إلى أهمية المضامين الدلالية التي يتكون منها هذا

(1) مدغمش، جمال عبد الغني ، الاحاديث القدسية ،ص 9.

الحديث، ويمكن القول: إنّه هناك مجموعة من التقنيات النصية التي ساعدت في تعزيز منحى التتابع الدلالي الإسنادي، وهي:

توظيف أسلوب الاستفهام في عملية التوصيل والتأثير، والإقناع، وعرض طبيعة كل مرحلة، أو دائرة إسنادية، متبوعة بنتائجها.. تكرار الأسلوب نفسه، وتكرار كلمة "قال" فهذا يُسهم في تكوين البنية الحوارية، كما أشار العلماء أنّ البنية الحوارية تمثل جانباً مهماً من جوانب الامتداد المنطقي للنص.

الخاتمة

النتائج:

بينت الدراسة العلاقات السياقية ونماذجها الوظيفية في الأحاديث الشريفة، وخلصت إلى مجموعة من النتائج، يمكن إجمالها كما يلي: العلاقة هي العنصر أو المظهر النحوي الذي يربط أجزاء النص على المستويين: الشكلي والدلالي، وهي التي تُحدث التماسك، أما السياق فهو حضور علائقي بين الألفاظ والمعاني، والوعي به؛ يؤدي إلى سلامة الفهم.

قوم العلاقات السياقية بربط أجزاء النص، فتجعله متماسكاً، ونتيجة لذلك يتمتّع بأعلى درجات المقبولية، إذ يتواصل المستقبل مع النص، وهذا يؤدي إلى نجاح عملية الاتصال اللغوي.

ثبت وجود نماذج وظيفية متعددة للعلاقات السياقية في نص الحديث القدسي وهي: العلاقات السببية، والعلاقات المعجمية، وعلاقات التماثل الأسلوبي، وعلاقات التناص، وعلاقات التتابع الدلالي.

ثبت أن هذه النماذج تعمل على تنظيم عالم النص، فهي تسهم في الربط، والتوضيح، والتفسير، وتجعل المحتوى الدلالي للحديث مؤثراً و مترابطاً وهذا له علاقة في التأثير والقبول.

طبيعة عمل هذه العلاقات داخل النص تكاملية، إذ تتآزر هذه العلاقات فيما بينها؛ للنهوض بالنص إلى أعلى درجات المقبولية والتأثير.

ثبت أنّ هذه العلاقات صادرة عن مقصدية نحوية أسلوبية، هدفها لفت نظر المستقبِل، وجعله يتأثر بالمضامين الخاصة بالحديث النبوي الشريف.

وقد تميزت مفرداته، ﷺ، بالفصاحة والجزالة والفخامة، والوضوح في الدلالة والخلوص من كل بشاعة أو عيب. فقد جمع في كلامه بين جزالة البداوة وفصاحتها.

اظهرت الدراسة في الحديث الشريف تنوعاً في الأساليب المهيمنة في كل مستوى من مستويات الدراسة الثلاثة (الصوتي، التركيبي، والدلالي).

فالحديث النبوى بذاته قادر على التواصل عبر الأجيال والعصور ، ومن هنا كان حرصه (ﷺ) على أن يؤدَّى بلفظه ، وما هذا الحرص ـ من جانب آخر ـ سوى شاهد على التفرد والخصوصية التى يأخذها المحلل الدلالي والأسلوبى أساساً ينطلق فى تحليله من مراعاته ، باحثاً عن خصائصه ومقوماته الخاصة .

دلالة الحديث الشريف على مستوى الجملة، وعلى مستوى المفردة متعددة في مدلولاتها فلا تكاد تمسك الجملة بمدلول حتى ينفتح عليك مدلول آخر لها.

إن التعدد في اللفظ والمعنى أو التقابل بين الدال والمدلول في الحديث الشريف إن هذه المعاني والاحكام غير محددة ، وإانما متنامية تتعدد وتتباين بحسب طريقة التفكير وكيفية التعامل مع اللغة ، بل نجد أن مع كل قراءة جديدة للنص النبوي تلوح دلالات جديدة وأغراض دقيقة كانت تخفى علينا ، في حين كانت المعاني الأولى محدودة مقيدة بالمنطوق اللفظي للتراكيب ، وبالاوضاع النحوية التي ترتبط بالدلالات المباشرة للجمل . لذلك ارتبط رصد هذه الظواهر بالمناسبة التي قيل فيها الحديث الشريف.

لقد اتسع المستوى الدلالي كما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة بيَّن أثر السياق والترابط في إظهار المعنى ومعنى المعنى.أثر السياق الدلالي في فهم النص فهماً جيداً وذلك بتأثير هذا السياق في المستوى الدلالي.

كشف البحث عن أن النبي الكريم عندما يريد توكيد أمر على وجه الثبوت والاستمرار فإنه يلجأ إلى استعمال الجملة الاسمية . وعندما يريد توكيده على وجه الحركة والحدوث مع الاختصار ، فإنه يلجأ إلى استعمال الجملة الفعلية.

أن الأساليب التي اختزنتها هذه الأحاديث كانت سبباً في ذيوعها وسيرورتها، يضاف إلى السبب الرئيس المتمثل في ارتباطها بشخص الرسول محمد (ﷺ) وكونها جزءً من الحديث النبوي الشريف الذي اهتم المسلمون بتبليغه ونشره بوصفه المصدر الثاني للتشريع الإسلامي .

ان لكل أداة ولكل صيغة في الحديث الشريف دلالة تعبيرية خاصة تفتقر إليها الأخرى، وهذه الدلالة تكشف عنها بنية السياق ، وأن اختيار أداة أو صيغة دون أخرى في حديث ما يفصح عن غاية بلاغية يقتضيها المقام ومقتضيات الأحوال.

تقوم العلاقات السياقية بربط أجزاء النص، فتجعله متماسكاً، ونتيجة لذلك يتمتّع الحديث بأعلى درجات المقبولية، إذ يتواصل المستقبل مع النص، وهذا يؤدي إلى نجاح عملية الاتصال اللغوي. ثبت وجود نماذج وظيفية متعددة للعلاقات السياقية في نص الحديث الشريف وهي: العلاقات السببية، والعلاقات المعجمية، وعلاقات التماثل الأسلوبي، وعلاقات التناص، وعلاقات التتابع الدلالي ، وهي تعمل على تنظيم النص، و تسهم في الربط، والتوضيح، والتفسير، وتجعل المحتوى الدلالي للحديث مؤثراً و مترابطاً وهذا له علاقة في التأثير والقبول.و طبيعة عمل هذه العلاقات داخل النص

تكاملية، إذ تتآزر هذه العلاقات فيما بينها؛ للنهوض بالنص إلى أعلى درجات المقبولية والتأثير. والعلاقات صادرة عن مقصدية نحوية أسلوبية، هدفها لفت نظر المستقبِل، وجعله يتأثر بالمضامين الخاصة بالحديث النبوي الشريف.

إن الحديث الشريف أرقى كلام العرب بلاغة وفصاحة وإنه لم يخرج عن أساليب العرب وغالباً ما تتطابق الأغراض في القرآن الكريم والحديث الشريف .

التوصيات:

الوقوف على دلالة ألفاظه ﷺ والمقارنة بين الروايات من خلال كتب شروح الحديث الشريف.